الافتتاحيّة

الثبــات فــي كــلام اللّه

رئيس التحرير

مقدّمــــة

كلمــة الله، فــي حياة المؤمــن، هي الركيــزة الحقّة التي عليهــا يبني حياته وخلاصه، انطلاقًا مــن أنّها هي في أساس الخلــق والكيان ودوام الوجود: "فــي البدء كان الكلمة...، وبه كلّ شيء كان" (يو ١: ١)؛ ولنَقُل بالأحرى إنّها هي الحقّ الذي يؤمّن الارتباط الأوثق بالله وبالآخر.

١ – مَن يثبت في كلام الله يخدمه

قــال الربُّ يسوع: "السمــاء والأرض تزولان، وكلامي لا يــزول أبدًا" (مت ٢٤: ٣٥). وحــده كلام الله هو الصخرة الصلبــة التي عليهــا نبني ونعلــي ونكون في ما هــو للربّ. يتبدّى عندها هــذا الثبات في كلام الله، الذي يستتبعه تجلّي المحبّــة الخصبة والمخصبة بيــن الله والإنسان. من هنا تنبع لــدى الثابت فــي كلام الله رغبة حارّة فــي أن يخدم ربّه، لا بــل أن يضع ذاته وكلّ ما لــه في خدمته؛ هو يدرك في العمق أنّ خدمــة الربّ هي بــذات الفعل تحقيق لذاتــه وشخصيّته وكيانه. لذلــك، ولأنّه خادم الربّ، يــروح يلتمس ما يريده الــربّ، مصوّبًا إليــه قلبه وفكره وطاقتــه المخزونة فيه، لأنّه يعلم أنّه يعمل له، "يعمل مشيئته" (رج عب ١٠: ٧، ٩).

عندما نــدع كلام الله يدخــل إلى قلبنا وكياننــا، يُدخلنا هو في ما هــو لله، ويُخرجنا في الوقت عينه من محدوديّتنا، لا بــل من ذاتيّتنا، ليسير بنا فــي دروب الانفتاح والشموليّة. وعندمــا يخلق كلام الله شراكةً لنا معــه، يؤمّن لنا شراكة مع الكنيسة وأبنائها الذين يعيشون كلام الله ويحيون به.

٢ – عدمُ الثباتِ في كلامِ الله هو رفضٌ لله

ولكــن إذا بَطُــلَ الثباتُ في كلام الله فــي حياتنا، يتحوّل هــذا الواقع بحدّ ذاته إلى احتقار لــربّ الكلمة بالذات؛ إنّنا في الحقيقة، ليس أمام مسألة عصيان لوصيّة إلهيّة وحسب، بــل أمام رفض حقيقيّ لله بالذات. نصل هنا إلى حالة تأليهيّة للذات، لأنّ كلام الله يكــون قد اختفى، لا بل غادر "هيكل الــروح القدس" الذي كان حالاً فيه، كمــا أخلى اللهُ هيكلَه المقدّس في أورشليــم عندما غضب على شعبه. هذه الحالة التأليهيّــة للذات تــؤدّي بصاحبها إلى الاعتقــاد الخطير بأنّه سيّد مصيــره، ومرجعيّة ذاتــه المطلقــة، والمقياس الوحيد لتصرّفاته. ولكنّنا نعلم مــن التاريخ والاختبارات أنّه، عندما يلغــي الإنسانُ اللهَ وكلامَــه المحيي من أفقــه، يضحي عبدًا

لحالة عدميّة وفوضويّة تستشري، فترى في الحقّ باطلاً، وفي الاستقامة سذاجةً وقلّةَ دراية، وفي القداسة آفاقًا عقليّة ضيّقة، فيعيث الفساد، ويسود الظلم، وتُخنَق الحرّيّة، ويُجْهَز على العدالة، ويُفقَد السلام. ونتساءل عن سبب العنف بين الناس؟!!

٣ – التخلّي عن كلام الله يؤدّي إلى الهلاك

هو الإنسان بالمطلق مَن يدفع ثمن التخلّي عن كلام الله، فيجد نفسه في وحشة قاتلة، ويتعرّض المجتمع إلى الضياع والتشرذم والتناحر، وكلّ ذلك يؤدّي إلى الانتقال من الحياة إلى الموت، إلى ما هو نقيضُ تصميم الربّ لمن يؤمن بكلامه، تصميمٌ يهدف إلى "انتقال من الموت إلى الحياة" (يو ١١: ٢٥).

هذا لا يعني أنّ الربّ سيُنزل العقابَ المهلكَ بمن أدار ظهره لكلمته، لأنّه هو نفسه أعلن أنّه ما جاء ليدين ويُهلك، بل لينقذ ويحيي. هذا ما أكّده بقوله: "كلّ غصن فيّ لا يأتي بثمر، يقطعه، وكلّ غصن يأتي بثمر يشذّبه لكي يأتي بثمر أكثر" (يو ١٥: ١–٢). لا يتخلّى الله عن صنع يده، وتصميمُه لا يُهزَم؛ فالكلمة الأخيرة ليست للشرّ والموت، بل للمسيح الذي سينتصر، ويخضع الكلّ تحت سلطانه المحيي (رج ١ كو ١٥: ٢٤–٢٥).

لنتذكّر أنّ مَن طُعّم بكلام الله (رج رو ١١: ١٧)، و"ثبت فيه كما الغصن" (يو ١٥: ٥ي) في "الكرمة الحقّة" (يو ١٥: ١)، يحمل ثمارًا جمّة (يو ١٥: ٥) للحياة الأبديّة الخالدة.

٤ – الثباتِ في كلامَ اللهِ وفي سرّ جسدِ يسوع ودمِه

إنّ كلامَ اللهِ وسرَّ جسدِ ودمِ المسيحِ هما أساس الوحدة والثباتِ في المسيح، والغذاءُ الذي يمكّن التلميذ من أن ينمو ويثمر محبّةً لله وللقريب.

في يو ١: ٣٢–٣٤، يخبر يوحنّا المعمدان أنّه رأى الروح ينزل من السماء كأنّه حمامة و"يستقرّ" على يسوع، فشهد أنّه هو ابن الله. حدث هذا في بداية رسالة يسوع العلنيّة، ممّا يتيح لنا أن نتبيّن أنّ الآب مقيم في يسوع الذي يعمل أعمال أبيه، في وحدة مع الروح القدس. إلى هذه الوحدة مع الآب بالروح القدس ينبغي أن يصل مَن يتتلمذ ليسوع، لأنّ العلاقة بين الآب والابن هي أساس علاقة راسخة ودائمة بين يسوع وتلاميذه.

يلعب "السماع" و"الاتّباع"، ومن ثَمَّ "الإقامة" و"النظر"، دورًا أساسيًّا في نجاح هذا المشروع المقدّس، كما نقرأ في يو ١: ٣٥–٣٩: "وكان يوحنّا في الغد أيضًا قائمًا هناك، ومعه اثنان من تلاميذه؛ فحدّق إلى يسوع وهو سائر وقال: هوذا حمل الله؛ فسمع التّلميذان كلامه، فتبعَا يسوع، فالتفت يسوع فرآهما يتبعانه فقال لهما: ماذا تريدان؟ قالَا له: رابّي، أي يا معلّم، أين تقيم؟ فقال لهما: هلمَّا فانظرَا! فذهَبا ونظرَا أين يقيم، فأقامَا عنده ذلك اليوم". إنّنا أمام مسيرة إيمان، يشكّل موضوع "الإقامة عند يسوع" فيها هدفًا هامًّا، لأنّ الإقامة، بحسب ما يعلّمنا يسوعُ هي "في حضن الآب" (رج يو ١: ١٨؛ رج ١٣: ٢٣).

انطلاقًا من هذه المعطيات، يأخذ موضوع الثبات في كلام الله أهمّيّته، لأنّه يضمن استمرارَ العلاقة بين يسوع والتلاميذ، وبالطبع مع الآب والروح القدس. ولكن كيف يمكن للتلميذ أن يستمرّ بالإقامة مع يسوع؟ الجواب سهل، وإن كانت متطلّباته كبيرة: هو كلام الله مَن يعطينا نعمةَ الثبات في الإقامة عند يسوع، شرط الإصغاء إلى صوت الآب، والتحديق إليه، والإيمان بيسوع، والإقبال إليه للإقامة عنده. ولدينا في كلام يسوع للذين ناهضوه، لأنّه شفى مقعدًا يوم السبت، خيرُ دليل على ذلك: "إنّ الآب الذي أرسلني هو شهد لي. أنتم لم تُصغوا إلى صوته قطّ، ولا رأيتم وجهه، وكلمتُه لا تثبت فيكم، لأنّكم لا تؤمنون بمن أرسل. تتصفّحون الكتب، تظنّون أنّ لكم فيها الحياة الأبديّة، فهي تشهد لي. وأنتم لا تريدون أن تُقبلوا إليّ،

فتكون لكم الحياة" (يو ٥: ٣٧-٣٩). إنّ العلاقة بين كلام الله وبين الإقبال إلى ابنه يسوع هي من الثوابت الأساسيّة. لذا يستتبعُ قراءةَ كلام الله الإصغاءُ إلى صوته، والإقبالُ بإيمان إليه وإلى ابنه يسوع، والإقامةُ عنده؛ فمَن أراد أن يكون تلميذًا ليسوع، عليه أن يثبت في كلامه الذي هو كلام الله (رج يو ١٤: ١٠): "إن ثبتّم في كلامي، كنتم تلاميذي حقًّا، تعرفون الحقّ، والحقُّ يحرّركم" (٨: ٣١-٣٣). ومَن بلغ إلى هذه الحرّيّة يهبه الله الآبُ الخلودَ والحياةَ الدائمة في حضرته: "من يحفظ كلامي لا يذق الموت أبدًا" (٨: ٥٢).

إنّ البلوغ إلى هذه الذروة من العلاقة بالابن الحبيب يسوع، وإلى الثبات في كلامه، يضمن الحصولَ على دَفْقِ الخيرات السماويّة، كما يؤكّد ربُّنا ذاته: "إذا ثبتّم فيّ وثبت كلامي فيكم، فاسألوا ما شئتم يكن لكم" (١٦: ٧).

ونصل هنا إلى دور جسد الربّ ودمه في ثبات مَن يتتلمذ في ما هو لله. قال ربّنا يسوع: "مَن أكل جسدي وشرب دمي ثبت فيّ وثبتُّ فيه" (يو ٦: ٥٦). في الحقيقة، يبني جسدُ الربّ ودمُه وحدةً كيانيّةً، تضمن الثبات في المسيح، وتضمن الحياة الخالدة.

يثبت المسيحيّ متّحدًا بيسوع كما الأغصان بالكرمة (يو ١٥). إنّ ما يقوله يسوع في ١٥: ١ هو رمزيّ؛ فالكرمة ترمز إلى الفرح والخيرات والحياة، وتنطبق في العهد القديم على إسرائيل كرم الرّبّ: "إنّي غرستكَ أفضل كرمة" (إر ٢: ٢١؛ رج أش ٥: ١-٧). لقد اعتنى الله بكرمه أيَّ اعتناء ليثمر، ولكنّه لم يعط الثمر، فتحوّلت الكرمة إلى "نبات برّيّ وإلى كرمة هجينة" (إر ٢: ٢١). انتظر الثمر، أي الأمانة للعهد وللوصايا، والحقّ والبِرّ، لكنّ بني إسرائيل خيّبوا أملَه، كما نقرأ في أشعيا: "لأنّ كرم ربّ القوّات هو بيت إسرائيل، وأناسُ يهوذا هم غرس نعيمه، وقد انتظر الحقَّ فإذا سفك الدّماء، والبِرَّ فإذا الصراخ" (أش ٥: ٧). نفهم من هذه الآية أنّ الآب هو الكرّام الذي اعتنى بكرمه، ولكنّ بعض الأغصان لم تثمر، لذلك تُلقى في النار؛ والسبب في ذلك هو عدم الثبات في كلام الله وفي الطاعة لمشيئته. ونفهم من قول يسوع "أنا الكرمه الحقّ" أنّه هو إسرائيل الحقّ، الذي يحقّق في شخصه تصميم الله الخلاصيّ، والذي به غَرَسَ الآبُ كرمتَه الجديدةَ التي تعطي الثمر الجيّد والشهيّ.

إنّ الثبات في كلام الله وفي الابن الحبيب يسوع يعني بذات الفعل الإيمان إيمانًا حيًّا وفاعلاً، أي الاعتراف بأنّه ابن الله، و"خبز الحياة" (٦: ٣٥ و٥١)، و"نور العالم" (٨: ١٢)، و"باب الخراف" (١٠: ٧ و٩)، و"الراعي الصالح" (١٠: ١١ و١٤)، و"القيامة والحياة" (١١: ٢٥)، و"الطريق والحقّ والحياة" (١٤: ٦)، و"الكرمة" (١٥: ١ و٥). يؤدّي هذا الاعتراف إلى قبول يسوع قبولاً حميميًّا بكلّ القلب والقوّة، خاصّة وأنّه يُظهر ذاتَه في علاقة متينة مع متطلّبات الإنسان الحياتيّة، أي الغذاء والحقّ والحياة والطريق، تمامًا كما في العهد القديم حيث تضمن علاقة بني إسرائيل بإلههم كلّ الخيرات والبركات اللازمة لكي تكون لهم الحياة وتكون بوفرة. نقرأ في ١٥: ٤: "أثبتوا فيّ وأنا فيكم. وكما أنّ الغصن لا يستطيع أن يثمر من نفسه، إن لم يثبت في الكرمة، فكذلك أيضًا أنتم إن لم تثبتوا فيّ". المقارنة واضحة بين الأغصان والتلاميذ: التلاميذ هم أغصان الكرمة، وعليهم أن يثبتوا في يسوع لأنّه الينبوع الذي يروي التلاميذ، الأمر الذي يضمن لهم أن ينموا في يسوع وفي محبّة كلمته.

قال ربُّنا: "أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا فتثمروا ويبقى ثمركم" (١٥: ١٦). من كلام الله تَستمدّ الأغصانُ الغذاءَ لتثمر خلاصًا للعالم ومجدًا لله الآب: "في هذا مجدُ أبي أن تثمروا ثمرًا جَمًّا" (يو ١٥: ٨).

إنّ نتيجة ثبات التلاميذ في كلام الله هو إعطاؤهم الثمر، أي حفظ وصيّة يسوع الأولى، وصيّة المحبّة، والقيام بالرسالة التي أوكلها إليهم، فيؤدّي هذا كلُّه إلى الفرح التامّ والعظيم: "قلت لكم هذه الأشياء ليكون بكم فرحي، فيكون فرحكم تامًّا" (يو ١٥: ١١).

٥- سينودس لتجديد التعرّف إلى كلام الله وتفعيله والثبات فيه

وتأتي الجمعيّة العامّة العاديّة الثانية عشرة لسينودس الأساقفة لترشدنا إلى تجديد التعرّف إلى كلام الله، وتفعيله في حياتنا، والثبات فيه، وحمْله بشرى سارّة، في الكنيسة وعبرها. ممّا لا شكّ فيه هو أنّ عمل الله الخلاصيّ يتطلّب تعاوننا وتجاوبنا، كي نسهم في عمليّة تحويل قلب الإنسان، عبر ولوج مَن يؤمنون بازدياد في حميميّة كلام الله. لذا لا بدّ من الاغتذاء من كلام الله دون انقطاع، من أجل التمكّن من الإسهام في إعلان الإنجيل الذي هو في أساس وجود "الكنيسة وحياتها ورسالتها".

ومع القدّيس بولس يهتف مَن أشرق عليه نور الكلمة واستضاء به: "الويل لي إن لم أبشّر بالإنجيل" (١ كو ٩: ١٦)، خاصّة لأنّ "الحصاد كثير والفعلة قليلون" (مت ٩: ٣٧). لذا ينبغي أن يكون المسيحيّ مستعدًّا لأن يقدّم جوابًا لكلّ من يسأله برهانًا عن الرجاء الكامن فيه (رج ١ بط ٣: ١٥)، خاصّةً عبر عيش الإنجيل وإعلان هذه البشرى السارّة. هنا أيضًا تتبيّن لنا أهمّيّة الثبات في كلام الله. ومن المفيد التذكير هنا بقول القدّيس إيرونيموس المأثور: "مَن لا يعرف الأسفار المقدّسة، لا يعرف قوّة الله. إنّ جَهْلَ الكتب المقدسة هو جَهْلُ المسيح"[١].

لهذه الأسباب يشكّل تخصيص سينودس لـ"كلام الله في حياة الكنيسة ورسالتها"، دفعًا هامًّا جدًّا نحو وعي دور كلام الله في حياتنا، وضرورة الثبات فيه، من أجل النموّ في معرفة الله، كي تكون لنا الحياة وتكون أوفر، فنتحوّل كالرسل القدّيسين إلى حاملي بشرى الفرح والخلاص حتّى أقاصي الأرض.

خاتمة

من البديهيّ القول إذًا بأنّ الثبات في كلام الله يترسّخ فينا عبر الاشتراك في مائدة الكلمة وفي سرّ الأفخارستيّا؛ فالمؤمن "يتغذّى من خبز الحياة على مائدة الكلمة وعلى مائدة جسد المسيح"، كما يعلّمنا المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني [٢]، فتنمو حياته، وتزدهر الكنيسة، وتؤدّى الشهادة الحسنة لكلام الله.

(١) رج مقدّمة التعليق على النبي أشعيا، الآباء اللاتين ٢٤، ١٧.

(٢) دستور عقائديّ في الوحي الإلهيّ، كلام الله، ٢١، ٢٦.